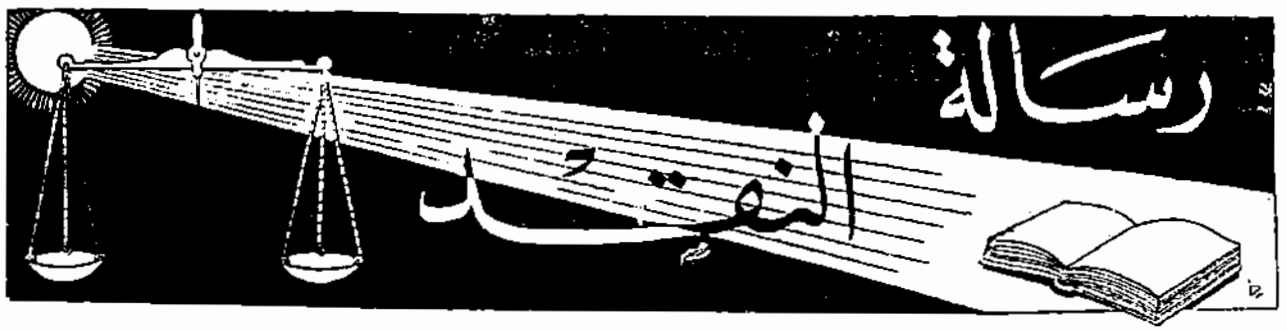

اسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضى بيير كربتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

للأستاذ الغنيمى

— ٥ —

نستطيع أن نفهم أن المترجم قد يخطىء فى عبارة صعبة غامضة المعنى ، ولكن الذى لا نستطيع أن نفهمه أن يعمد المترجم إلى عبارة سهلة واضحة المعنى فيستبدل بمعناها معنى آخر من عنده بعيد كل البعد عن المعنى المراد

(١) أنظر إلى قول المؤلف عن موقف اسماعيل من السخرة

Ismail's attitude towards the corvée was not a fleeting fancy.

فقل فى هذه العبارة غموض يجيز للأستاذ صروف أن يترجمها بقوله : « إن موقف اسماعيل بازاء السخرة لم يكن يقصد منه التظاهر » من أين جاء الأستاذ بالتظاهر . إن المعنى الذى لا يخفى على إنسان هو لم يقف اسماعيل موقفه من السخرة لفكرة عارضة زائلة »

(٢) ومن هذا النوع أيضاً العبارة الآتية التى تبين الأثر الذى انطبع فى ذهن اسماعيل حين رأى صمويل بيكر لأول مرة

Ismail became impressed with his vigorous personality.

والتى ترجمها الأستاذ صروف بهذه العبارة الغامضة « وقع عنده موقعاً حسناً » فأين ذلك من قول المؤلف أن اسماعيل قد أعجب بشخصيته القوية أو أثرت فيه شخصيته القوية

(٣) ولا يختلف عن ذلك ما ترجم به الأستاذ صروف وصف المؤلف لحملة بيكر الذى يقول فيه

The official nature and character of which made it an undertaking of considerable importance

فقد ترجمه الأستاذ صروف بقوله « انها كانت عملا ذا شأن خطير » أما سبب هذا الخطر وهو طبيعتها وصفتها الرسمية فلم يعن المترجم ببيانه كما بينه المؤلف

(٤) ومن العبارات التى أغفلها المترجم قول المؤلف فى موقف اسماعيل من السير صمويل بيكر

His good faith cannot be successfully attacked, for his agent's field of operation was several thousond miles south of Cairo. In the territory over which he was appointed, the Englishman was lord and master.

وكل هذه معان لها قيمتها لم يذكرها المؤلف عبثاً ، وليس فيها شىء من الصعوبة ، ولكن الأستاذ حذفها كلها

(٥) وترجم الأستاذ عبارة Legitimate commerce بقوله التجارة المنظمة مع أن معناها التجارة المشروعة ؛ والفرق بين المعنيين كبير لأن النخاسة قد تكون تجارة منظمة . أما التجارة المشروعة أو المباحة فلا يمكن أن تشمل تجارة الرقيق

(٧) ثم لينظر القارىء معنا إلى هذه العبارة التى يصف بها المؤلف عمل المراجعين الذين جاءوا لفحص حسابات اسماعيل

Auditors, as a rule, are as cold as fishes. The human equation means nothing to them. They have but one mandate. It is a mission of heartless scrutiny. Tangible assets and liabilities, real or potential, are the only things that interest them.

ولينظر بعد ذلك إلى ترجمة الأستاذ صروف التى يقول فيها « إن فاحصى الحسابات (المراجعون) لا يهمهم عادة إلا فحص ما يقدم اليهم من سجلات ودفاتر ومن مستندات الديون التى هى للغير أو على الغير »

ونحن إذا تجاوزنا عن أسلوب هذه العبارة نرى أنها لم تؤد إلا جزءا يسيراً من معانى العبارة الانجليزية . قد يكون فى هذه العبارة الانجليزية شىء من الصعوبة ولكن هذه الصعوبة هى محك القدرة على الترجمة وإلى الاستاذ ترجمة لهذه القطعة جامعة لكل ما فيها من المعانى :

« إن المحاسبين فى العادة لاقلب لهم ، وليس لهم شان باحساس الناس وعواطفهم ، ولا يضعون نصب أعينهم إلاغرضا واحدا هو البحث والتدقيق ، لاتاخذهم فيه هوادة . وكل مايعنون به هو ماللشخص وما عليه سواء أكان ذلك حقيقة حاضرة أم تقديرا مستقبلا

(٧) هل يصدق القارىء أن الأستاذ صروف قد ترجم

Before he left for the Sudan on his first mission

بقوله « قبل مغادرته السودان فى مهمته الأولى » وهل يمكن أن لايعرف الاستاذ صروف أن Left for معناها « سافر إلى » لاغادر ؟ وأين كانت مهمة غردون الاولى التى سافر اليها من السودان ؟

إنا لانكاد نصدق أن الاستاذ صروف قد ترجم هذه العبارة أو اطلع عليها وعلى الأصل بعد الترجمة

قال المؤلف فى الأموال التى أنفقها إسماعيل فى حرب الرقيق

Even if such considerations as these may perhaps tend to warrant the blotting out from the « moral principle » balance sheet of the money spent by Ismail etc.

فقلب الاستاذ صروف معنى هذه العبارة إذ قال : « ومع أن الاعتبارات المار ذكرها قد تسوغ انفاق اسماعيل للمال الخ » مع أن الترجمة الصحيحة هى : وحتى لوكانت هذه الاعتبارات كلها تبرر اغفال الأموال التى أنفقها اسماعيل وتجيز محوها من سجل أعماله الأدبية الخ ، وما أكبر الفرق بين المعنيين !

(٨) وقال المؤلف فى تقديره الأموال التى أنفقها اسماعيل فى محاربة النخاسة

In order to estimate what this X may possibly amount to, it is well to recall etc.

فلم ير الاستاذ صروف أن يترجم هذه العبارة باكثر من قوله « ولا يعزب عن البال » والاستاذ مولع بمثل هذه العبارة المبهمة فقد تكررت هى ولفظ « وعليه » أكثر من مرة بدل جمل طويلة ذات معان كثيرة فى الأصل الانجليزى

(١٠) ويقول القاضى كربيتس إن قناصل أوربا وأمريكا كانوا يحمون تجارة الرقيق ، وان السفن التى كانت تحمل العبيد كانت ترفع الراية الامريكية ثم يقول بعد ذلك :

Thus secured from interference by the Consuls of Europe and America etc.

فقال الاستاذ صروف فى ترجمتها إنهم كانوا بمأمن من تعرض قناصل أوربا وأمريكا « مع أن المعنى الحقيق أن « قناصل أوربا وأمريكا كانوا يحمون هؤلاء التجار من أن يتعرض لهم أحد .

ذكر المؤلف ذلك فى الفقرة السابقة لهذه العبارة المنقولة من كتاب السير صمويل .

(٩) هل سمع القارىء أن كلمة :

Uususpecting villags

معناها « القرية المقصودة » هذا ما ترجمها به الاستاذ صروف بدل القرية الآمنة أو الغافلة عما يراد بها .

(١٠) وقال المؤلف عن العقد الذى كان بين بيكر واسماعيل باشا

It appears that he drafted the contract which defines his relations with the Viceroy.

أليس المعنى الذى يفهمه كل إنسان من هذه العبارة هو : ويلوح أن (السير صمويل بيكر) هو الذى كتب صورة العقد الذى يحدد علاقته بالوالى . لكن الاستاذ لم يفهمها كذلك بدليل أنه قال فى ترجمتها « ويظهر أنه كان بينه وبين الخديو عقد لتنظيم علاقته به » وهذا مالم يقله المؤلف ، فان وجود العقد لاشك فيه كما قال ذلك بصريح العبارة بعد سطر واحد من هذا الكلام ولكن الذى لم يتأكد منه هو أن كاتب هذا العقد هو السير صمويل بيكر .

(١١) وقال المؤلف يصف صعوبة نقل المؤن والذخائر والسفن من مصر إلى السودان

It had to be delivered at so great a distance and transported by sea-going steamers, river boats and camel back.

فترجم الأستاذ صروف ذلك بقوله « كان يجب نقلها مسافات شاسعة جدا » وأين بقية المعانى ؟ أين طرق نقلها ـ البواخر البحرية والقوارب النهرية وظهور الابل ؟

نكتفى بهذه الأغلاط من الفصل الخامس لننتقل إلى الفصل السادس لنبدأه بهذه الغلطة التى لايصح أن يقع فيها مترجم .

(١) قال المؤلف عن الرجال الذين صحبوا بيكر فى رحلته

It had for its heroes the two Bakers uncle and nephew, Abdel Kader, the Muslim, Mansur the Copt and every man of that élite corps etc.

أيدرى القارىء ماذا قال الأستاذ صروف ؟ قال : « أبطالها السير صمويل بيكر نفسه وابن أخيه وأتباعه عبد القادر ومسلم ومنصور ورجل قبطى وطائفة من الأتباع والانصار » . إنا كلما أمعنا فى قراءة الكتاب زادت شكوكنا فى أن الاستاذ صروف قد ترجمه بنفسه أو اطلع على الترجمة ، وإلا فهل كان يخفى عليه أن معنى العبارة هو : « أبطالها السير صمويل بيكر وابن أخيه وعبد القادر المسلم ومنصور القبطى وكل رجل من هذه الطائفة المصطفاة » : قد يظن الاستاذ صروف أن الشولات تجيز له أن

يفهمها كما فهمها ولكن ذلك ظن غير صحيح فعبد القادر هو المسلم ومنصور هو القبطى مهما وضع بينها من شولات

(١) وقال المؤلف فى هذا المعنى نفسه :

Its brigands become saints.

فقال المترجم « لصوصها الذين تحولوا إلى الشهامة» وهى عبارة لا معنى لها ولا ندرى لم لم يترجمها الأستاذ كما هى ليفهمها الناس فيقول « لصوصها الذين عدوا (أو أصبحوا) فيما بعد قديسين »

(٣) وقال المؤلف يصف حفلة رفع العلم المصرى على البلاد التى فتحها بيكر

The troops formed three sides of a square.

فقال الاستاذ صروف « ووقف الجنود بشكل ثلاث أضلاع من أضلاع مربع مستطيل » ولاندرى ما هو هذا المربع المستطيل ولا من أين جاء الاستاذ صروف بلفظ مستطيل التى أفسدت المعنى

(٣) وقال اسماعيل فى عهده إلى السير صمويل بيكر وهو ذاهب لمحاربة الرق

You will in a short time get the natives to replace an illegitimate interest by a legitimate one.

فقال الأستاذ صروف فى ترجمة الجملة المنقولة عن وثيقة رسمية عظيمة القيمة : « فتجذب إليك القبائل ، فاين هذا من معناها الحقيق وهو « أنك لاتلبث أن ترى الاهلين يستبدلون بعملهم المحرم عملا مشروعا »

(٤) وقال المؤلف عن غردون واسماعيل

Two English gentlemen who would not give their friendship and confidence to a bad man.

ومعنى ذلك أنهما « من أشراف الانجليز الذين يضنون بصداقتهما وثقتهما على أشرار الناس » ولكن الاستاذ صروف يترجم ذلك بقوله « وما كانا ليفرطا فى صداقته »

(٤) هل معنى Great profits « بعض الأرباح » أو معناها أرباحاً عظيمة

(٥) وقال المؤلف فى معرض كلامه عن الضباط الأمريكيين الذين استخدمهم اسماعيل

Blue book material cannot be found to bear out these statements.

وهى عبارة معناها « لا توجد كتاب زرقاء تؤيد هذه الأقوال ولكن المترجم لسبب ما ترك هذه العبارة من غير ترجمة

(٦) وقال اسماعيل فى خطابه إلى رئيس الضباط الأمريكيين

I count upon your discretion, devotion and zeal.

معناها أنى أعتمد على حكمتك وإخلاصك وغيرتك ، ولكن الأستاذ ظن أن discretion مشتقة من لفظ secret فترجم العبارة كلها بقوله : « إنى أعتمد على حبكم وإخلاصكم ومراعاتكم لشروط الكتمان » فغير بذلك المعنى وأفسد الأسلوب

(٧) وقال المؤلف يعلق على تعيين الجنرال استون رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش المصرى

This designation meant more than the . . .

وهى عبارة طويلة ترجمتها بالضبط « وكان لهذا التعيين معنى أبعد من مجرد اختيار مت ، ولورنج ، وسبلى لجيش الوالى كان يحوى كثيرا من الضباط الأجانب . لقد كان اختيار هذا الضابط الأمريكى لذلك المنصب ثم اختيار عدد كبير من بنى وطنه معه ذا معنى خاص . كان إيذانا بانقضاء عهد السيادة الفرنسية على مصر ولم يكن معناه أن إنجلترا سكسونيا قد خلف غاليا (فرنسا) أو أن الصقلى والتيوتونى قد ضعف أمرهما معا . لم يكن معناه ذلك بل كان معناه أن عهدا جديدا قد طلع على مصر وأن إسماعيل قد حرر بلاده من القيود الأجنبية واعتزم أن لا يكون لأحد سلطان عليه : نعم إنه استعان بالأمريكيين ولكن أحدا لا يجهل أن الولايات المتحدة لم يكن لها مطامع إستعمارية فى مصر أو فى إفريقية

ثم انظر بعد ذلك إلى ترجمة الأستاذ « وكان لهذا التعيين مغزى أبعد من تعيين سائر الضباط الأجانب فى جيش الخديو إذ كان نذيرا بانتهاء السيادة الفرنسية وبيده عهد جديد تتمتع فيه مصر باستقلالها ويصبح فيه الخديو سيد نفسه . ومما أعان على تحقيق ذلك ما يعرفه الخاص والعام من أن الولايات المتحدة كانت منزهة عن كل غرض إستعمارى أو غاية أمبريالستية فى مصر وأفريقية . »

لو أن الاستاذ كان يلخص الكتاب لجاز له أن يقول هذا القول على مافيه من تغيير واختلاف عن قول المؤلف ؛ أما الترجمة فلا يجوز فيها هذا . وقد حذفنا أصل هذه الفقرة الانجليزى لانه يشغل عمودا كاملا من الرسالة فليرجع إليه القارىء إن شاء ونؤكد له أنه يطابق ترجمتنا مطابقة تامة

(٨) هل يصدق القارىء أن الاستاذ صروف يقول « وفى وسعنا ان نخمن على تلك الأعمال » ترجمة لقول المؤلف

But the total of this outlay can be surmised.

الذى معناه « أننا نستطيع أن نتصور بمجموع هذه المبالغ بوجه التقريب الخ »

ولنكشف بهذا القدر اليوم وموعدنا العدد القادم ان شاء الله

الغنيمى

(بقية المنشور على صفحة ٨٠٣)

بعنوانه ، ولكنى أعتقد أن عنوان الكتاب يوبه وينظمه ، ويلائم بين أجزائه ويشيع فيه هذه الموسيقى التى تحببه إلى النفوس وتغرى به عقول القراء . وأول ما يجب من العناية بالعنوان فيما أرى أن نذهب به مذهب القدماء الصالحين ، فلا نرسله إرسالاً ولكن نقيده بالسجع ، لأن ارسال الأشياء فى غير قيد يمكنها من أن تهيم على وجهها وتنطلق فى غير وجه ، وتكون كالجراد هذا الذى لا يستقر على سنبلة أو كوز الا ريثما ينتقل إلى سنبلة أو كوز . فاذا أردت يا صديقى أن تضع كتاباً فلا تفكر فى موضوعه ولا فى أجزائه ولا فى أبوابه وفصوله ولا فى غاياته وأغراضه ، فهذا كله يأتى وحده دون أن تدعوه أو تلح فى دعائه بالعناية أو التفكير ، إنما الشىء الذى يجب أن تقف عليه جهدك ، وتنفق فيه وقتك ، وتستنفد فيه قوتك ، هو العنوان ، والعنوان المقيد المسجوع . ويشهد بذلك تراثنا الأدبى العظيم الذى إن أحصيته وجدت أكثره قد قيد بهذه العنوانات المسجوعة ؛ ويشهد بذلك صديقنا الزيات فقد كانت لنا معه جولات قيمة خصبة أيام الشباب فى هذا الفن الذى لا يحسنه إلا اماء قلون ؛ ويشهد بذلك صديقنا محمود حسن زناتى الذى كان أستاذنا فى هذا الفن العجيب . لذلك لم أكد أختار هذا الموضوع للحديث حتى فكرت قبل كل شىء فى عنوان الكتاب الذى ألفته ولم تنثنى منه إلا بطرف يسير قصير . وقد سميت هذا الكتاب كتاب الارشاد إلى فلسفة الجراد . وأخص ما يمتاز به العنوان البارع أن يراه القارىء فيظنه واضحا جليا ، فاذا رآه الاخصائى تبين فيه ألوانا من الغموض وفنونا من الغرابة تحتاج إلى الشرح والتفسير ، وإلى الحاشية والتقرير . ولاشك فى أن المثقفين من قراء الرسالة سيرون هذا العنوان سهلا سائغا وقريبا دانياً . ولكن أصحاب البيان والراسخين فى علم التاويل سيلاحظون أن كلة الفلسفة هنا قد استعملت فى غير معناها الحقيقى المعروف ؛ فليس للجراد فلسفة ؛ والدليل على ذلك أنك تريد أن تعلمه الفلسفة ، وإذن فقد يقال إن فى هذه الكلمة مجازا مرسلا لأن المؤلف أراد فلسفة الجراد باعتبار ما سيكون ، لأن الجراد إذا قرأ كتابك إن شاء الله تهذب وتادب وصارت له فلسفة . ولكن ليس هذا هو الذى اراده المؤلف ، فقد يكون أراد شيئاً آخر ، وهو أن للجراد الآن فلسفة جرادية يراد أن يعدل عنها إلى الفلسفة الانسانية . وقد يكون المؤلف أراد بالفلسفة المصدر أى جعل الجراد فيلسوفا يقال فلسفت الشىء جعلته فلسفيا ، وفلسفت الانسان جعلته من اصحاب الفلسفة ، وفلسفت الجراد جعلته مفلسفا . ولا تبحث عن هذه الكلمة فى المعاجم العربية القديمة ، فقد لا تظفر فى هذه المعاجم بشىء ، ولكن ابحث عن هذه الكلمة عند الفلاسفة فى كلية الآداب فهم الذين يلائمون بين القديم والجديد ، وهم الذين يرجع اليهم فى مثل هذه المشكلات.

أرأيت أن كلمة واحدة من هذا العنوان قد أثارت كل هذه الأبحاث التى أومأت إليها إيماء ، فكيف بكلماته الأخرى إذا لوحظت مفرقة وإذا لوحظت مجموعة . والشىء الذى ليس فيه شك هو أن هذا العنوان سيضمن لك شيئين : الأول أنه اعلان سيعجب القراء ويروقهم ، بل سيبهرهم ويروعهم ، وسيدعوهم إلى شراء الكتاب والترويج له عند الأصحاب والأصدقاء . ولعله يروق فى وزارة المعارف وأنت أعلم بما وراء ذلك من المنافع التى لا تحصى . والشىء الثانى أن هذا العنوان سيرسم لك برنامج الكتاب ويمكنك من تبويبه فى غير مشقة ولا عسر . ولا تكلف نفسك روية ولا تفكيراً ، ولكن خذ كلمات هذا العنوان واجعل منها عنوانات لأبحاثك فسترى أن كتابك قد بوب باذن الله . فليكن موضوع الباب الأول إذن هو البحث عن كلة الكتاب مم اشتقت ، ومن اين أخذت ، وما معانيها المختلفة التى دلت عليها فى العصور المختلفة والبيئات المتباينة . ولا تخف أن يقال لك إن هذا استطراد وإطالة وتزيد فى القول ، فلولا الاستطراد والاطالة والتزيد فى القول لذهب أكثر العلم أو أكثر الأدب على الأقل . ولك فى الجاحظ أسوة حسنة فهو قد أطال فى ذكر الكتاب حين أراد أن يؤلف فى الحيوان .

وقد ألف أرسطاطاليس من قبله فى هذا الموضوع فآثر الايجاز واجتنب الاستطراد وكانت النتيجة ان الناس جميعا يقرأون كتاب الجاحظ وليس منهم من ينظر فى كتاب ارسطاطاليس ، لان كتاب أرسطاطاليس علم وقد غير علم الحيوان ، وكتاب الجاحظ أدب وقلما يتغير الأدب ، ولا سيما حين يمتاز بالاطالة والاستطراد . ونحن فى كلية الآداب لا نبدأ دروس الأدب حتى نعلم الشبان علما كثيراً عن لفظ الأدب ومعانيه ، فسر سيرتنا ولا بأس عليك . وإذا فرغت من هذه الأبحاث القيمة التى لا تنصل ولا يجب أن تنصل بالموضوع ، فخذ بعد ذلك فى بحث يكون صلة بينها وبين الموضوع وهو إضافة الكتاب إلى الارشاد والصلة بينه وبين الجراد . وكيف تختلف الكتب باختلاف أصناف الناس ، وكيف تختلف الكتب باختلاف أنواع الحيوان ، لا من جهة موضوعها وأسلوبها فحسب ، بل من جهة أحجامها وقطعها أيضا ومن جهة مادتها التى تطبع وتذاع فيها ، ومن جهة الخط والحروف التى تستخدم فى هذا الطبع ؛ فانواع الطبع تختلف باختلاف القراء فى القدرة والذوق ، وكذلك الاحجام ، وكذلك مادة الورق والغلاف ؛ ويجب أن يطرد هذا بالقياس إلى الحيوان وبالقياس إلى الجراد خاصة ، وواضح جدا أن هذا سيذهب بك فى ألوان من البحث الطريف الذى لم تسبق إليه ؛ فاذا فسرت آراءك ببعض الصور فثق بانك ستحدث فى عالم التاليف حدثا عظيما ، وثق بانك ستفتح للجنة الترجمة والتاليف والنشر

أبوابا لن تتردد فى ولوجها ولكنها لن تعرف كيف تخرج منها .

ثم دع هذا الباب إلى الباب الثانى واجعل عنوانه الارشاد واسلك فى هذا الباب مسلكك فى الباب الأول ، فاخضع لفظ الارشاد ومعانيه لكل هذه التجارب التى اخضعت لها لفظ الكتاب ومعانيه ، ثم ابحث عن ارشاد الجراد كيف يكون فاعقد فصلا تصور فيه مذهب الذين يرون أن الجراد يفهم بالعقل وبين كيف يكون إرشاده على هذا النحو ، واعقد فصلا آخر تصور فيه رأى المحدثين الذين يرون أن الجراد يفهم بالفم والبطن وبين فيه كيف يكون ارشاد الجراد من طريق الأفواه والبطون . والناس كما تعلم يختلفون فى هذا الموضوع ، ومنهم من يرى أن تكتب أصول الفلسفة على أوراق الأشجار والنجوم والزرع التى يحبها الجراد ويميل إلى أكلها ويقولون إن الجراد إذا أكل هذه الأوراق المفلسفة فهم العلم ووعى الحكمة وأصبح فيلسوفا باذن الله .

ثم اجعل الكلمة الثالثة عنوانا للباب الثالث وهى إلى . ولابد من أن تبحث عن السبب فى ان الارشاد يتعدى بالى ولا يتعدى بغيرها من حروف الجر ؛ ولم لا يقال كتاب الارشاد للفلسفة أو بفلسفة أو فى فلسفة أو من فلسفة أو عن فلسفة أو على فلسفة الجراد . وواضح أن كل حرف من هذه الأحرف سيحتاج إلى فصل مطول جدا وستجد فى كتاب المغنى لابن هشام ما يعينك على تحرير هذه الفصول . ولاتخف من هذه الاطالة فانها هى التى ستنفعك وتروج كتابك عند أصدقائنا الأزهريين . ثم إذا اردت ان يروج كتابك عند الجامعيين وفى كلية الادب خاصة فحسن عنايتك بالباب الرابع وهو باب الفلسفة وهو اللب الأول للكتاب ، لأن الأبواب التى سبقت كانت قشوراً ولكنها كانت قشورا لابد منها ، فكل لب يحتاج إلى قشر وإلا لما كان لبا . فابحث الآن عن الفلسفة وعن أصل لفظها واحذر أن تقول إنه يونانى فقد يكون هذا مطابقاً للحق ، ولكن الحق فى هذه الايام لايغنى عن البدع شيئا . والبدع فى هذه الايام ان تخرج الأشياء عن أصولها وتوضع فى غير مواضعها وترد إلى غير مصادرها . والظاهر أن كلمة الفلسفة ترجع إلى أصل سامى عربى ، وما أشك فى أنك ستجد فى شعر قضاعة بيتا يثبت لك وللناس جميعا ان العرب قد عرفوا الفلسفة واستعملوا لفظها قبل ان يولد سقراط . ولابد أن تعرض معانى الفلسفة ومذاهب الفلاسفة فى العصور المختلفة وتبحث عن أيها أدنى إلى الجراد ، إلى عقله إن كنت من أنصار العقل ، وإلى بطنه إن كنت من أنصار البطون . فاذا فرغت من هذا البحث الهائل المخيف وصلت إلى الباب الاخير الذى هو نتيجة النتائج وجوهر الجواهر وأصل الاصول وفصل الفصول وخلاصة الكتاب ولب الألباب وهو باب الجراد الذى وجه اليه الارشاد .

وهذا الباب معقد بطبعه فلابد من أن تبحث عن لفظ الجراد من أين جاء وإلى أين انتهى ، ولا بد من أن تبحث عن منزلة الجراد بين أنواع الحيوان ، ولابد من أن تبحث عن محاسنه وعيوبه ، ثم لابد من أن تبحث عن عقله وما يكونه من الملكات وعن بطنه وما يمتاز به من الخصال فى الاستيعاب والهضم وتصريف العلم والفلسفة إلى أجزاء الجسم وأطرافه والوصول آخر الامر إلى أن يسير الجراد سيرة فلسفية صالحة . فاذا وصلت إلى هذا الموضع من كتابك وخيل إليك أنك قد انتهيت به إلى غايته وأفدت العلم فائدة محققة تمكنك من نيل الدكتوراه من كلية الاداب فعد إلى منهج ديكارت وألغ هذا الذى كتبته كله إلغاء ، وافترض أنك لم تكتب شيئا ولم تعلم شيئا واستانف البحث من جديد فسترى أنك قد أضعت وقتك فى غير نفع ، وأنفقت جهدك فى غير طائل ، واستهلكت راحتك وورقك وحبرك واقلامك فى غير غناء ، لان الجراد ليس فى حاجة إلى أن يتعلم الفلسفة الانسانية الان ، فقد تعلمها منذ عهد بعيد ؛ فهو إن كان ناهبا سالبا ومغيراً محاربا فقد أخذ ذلك عن الانسان . وهل زاد الانسان على أنه حيوان قوام حياته السلب والنهب والحرب ؟ وهو إن كان خفيفا سريعا متنقلا لايستقر على حال من القلق فقد أخذ ذلك عن الانسان . وما أظن أنك تستطيع أن تلقى جرادة تجهل قول الشاعر القديم : « تنقل فلذات الهوى فى التنقل »

وهو إن كان مفتنا فى الخفة والتنقل فقد اخذ هذا الافتنان عن الانسان ، لانه يراقب الحضارة وتطورها ، ويراقب المبادىء وتلونها ، ويراقب اضطراب الناس فى آرائهم وأهوائهم ومذاهبهم ومبادئهم ، ويراقب الضمائر التى تباع ، والعقول التى تمتهن ، والحريات التى تزدرى ، والأصول التى تتخذ تجارة ووسيلة إلى الربح وتحقيق المنافع الدنيئة . وقد هم الجراد أن يقلد الانسان فى هذا فادركته بقية من عقله أو من بطنه الذى تستقر فيه الفلسفة وامتنعت به عن أن ينحط إلى هذه القرارة الحقيرة الموبوءة التى انحط اليها الانسان الحديث ، فظل حيث هو يغير كريما ليأكل من ثمرات الأرض مايستطيع أن يصل إليه ، ويعود كريما ان استطاع العودة أو يموت كريما بما يسلط عليه الانسان من ألوان البأس وضروب الفناء . وأنت حين تصل إلى هذه النتيجة بين اثنتين : فان كنت من أنصار الفساد وعشاق الانحطاط الذين يرون أن الانسان قد وصل فى هذا العصر إلى أرقى أطوار الحضارة فاستانف العمل لتبحث عن طريق تهدى بها الجراد إلى تقليد الانسان فى الانحدار إلى هذه القرارة ، وإن كنت من المحافظين الذين يكرهون التطور الحديث ويمقتون تائجه فادع الانسان إلى أن يتعلم فلسفة الجراد وضع فى هذا كتابا اسمه : (التيان عن تجرد الانسان) والتجرد هنا مشتق بالطبع من الجراد .

وتقبل أيها الصديق العزيز المجهول أخلص تحياتى

طه حسين